البلاد التي كانت

شهادة حب في زمن الحقد

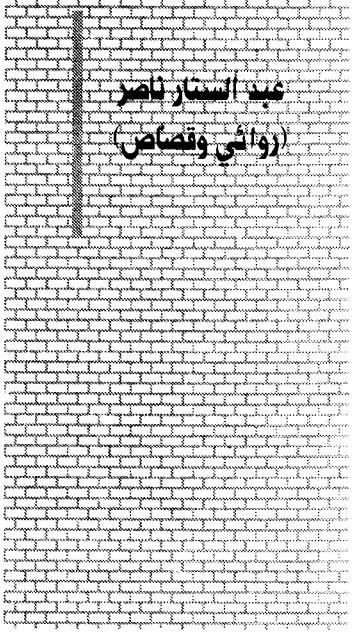

عبد الستار ناصر
(روائي وقصاص)

يتكرر، يتكرر، المشهد يتكرر، وليس من صوتٍ ولا صدى. المشهد لم يَعُدْ غيرَ هيكلٍ لبلادٍ كانت، صورةً معتمةً في زمنٍ معتم، صورةً لا يمكن رؤيتُها قبل ثلاثين سنةً أخرى؛ فلربَّما يستيقظ، آنذاك، الضميرُ العالميُّ، من غفوته، ويقول الكلمةَ الحقَّ عن هذا الرعب الدمويّ اللاإنسانيّ الذي أصابَ البلاد، وليس من صوتٍ ولا صدى.

المشهد يتكرر، وأسماء في الشعر والقصة والفن ذهبتْ إلى المقبرة على تابوت السرعة، لئلا تقصِمَها القنابلُ نصفيْن إذا ما تأخرتْ. هكذا، بسرعة لا تُصدَّق، غاب عنا الأصدقاءُ المبدعونَ: موسى كريدي، محمود جنداري، عبد الأمير معلّة، غازي العبادي، عبد الملك نوري، أحمد قبّاني، هاني هاني، نصر محمد راغب، مهدي جبر، رياض أحمد، عبد الجبّار كاظم، طعمة التميمي، غازي التكريتي، يوسف الحيدري، حياة شرارة، جاسم محمد حسن، إسماعيل عيسى، محسن اطيمش، وغيرُهم، وغيرُهم.

مشلولٌ جسدُ العالم، لا أصابعُ تتحرك ولا شفاهٌ تَنطق. ثمة، في الساعات الآتية، أخطبوطٌ من نارٍ يمشي على طبقاتٍ من صدى جرائمَ كبرى، إلى أين ستمضي هذه المرة؟ ألا يكفي ما جرى؟ خيطٌ من السحر والمستحيل والقشعريرة يمرّ بين الحياة والموت، بين النعيم والجحيم، بين الله والشيطان في وقت واحد. إنها لحظةٌ باهرةٌ من عمر هذا الزمان: إما أن تبقى، وإما أن تموت.

غريبٌ أمرُها تلك الليلة، ما من شيء فيها يشبه أيَّ شيءٍ في الماضي؛ خلعوها من خارطة الكون وأحرقوها بين الكواكب وأجرام السماء. لا أحدَ ينظر صوب العراق، إلاّ نبضٌ شريفٌ هنا، وقلبٌ نقيٌّ هناك، يبكي على أبشع جرائم الكون وأسوإ ما جرى في الكرة الأرضية منذ تفّاحة آدم إلى خنزير السيد كلينتون... هل ثمة مَنْ رَأى جريمةً أبشع؟

والمشهد يتكرر، يتكرر، وليس من صوت ولا صدى. تلك الليالي من البطش، سَفَرٌ ينهش المسافات في غمضة عين، هجرةٌ للعقل صوبَ المستحيل، أيامٌ من أبطإ ساعات العصر وأسرعها في آن.. تلك هي المعجزة في أننا عشنا منذ السابع عشر من كانون الثاني ١٩٩١ حتى الساعة.

تلك الليلة أطلقوا عليها «ليلةَ الوحش الأمريكيّ» بأنيابه الشرسة المغطّاة بورق الرافة. الأطفال هم الذين ابتكروا تسميةً كهذه وكرَّرها الكبارُ. إنها ليلةُ الجريمة الأنيقة التي تلبس ثيابَ الغدِ المشرقِ الجميل، ليلةُ الأكاذيب والسقوط البشريّ في خيمةِ مَنْ لا يستحق القرار؛ إنها ليلةُ الموت الذي سيأتي حسابُهُ غداً أو بعد ألف عام، لكنه سيأتي حتماً.. وهو ما يقوله الأطفالُ أيضاً، ويا للعجب!

شلاّلٌ من النيازك، وأمواجٌ من الرعد، ترفض القواميسُ أن تشرح ذاك الجبلَ الوحشَ من البروق أو ذاك البركانَ الطافرَ من جوف الحقد. تلك الليالي لا شأن لها بروح البشرية. تبّاً لهذا السواد الذي يغزو الكون، لهذا الجزء الخبيث الداعر من لحم العالم، لهذا الشيء الوقح الساقط الذي اسمُهُ «أمريكا». والمشهد يتكرر، يتكرر، وليس من صوتٍ ولا صدى.

كان الموت يهبط فوق الأرض، صار أقرب إلينا من حبل الوريد: مرةً على شكلٍ خاطفٍ لا نراه، ومرةً نراه ولا نعرف شكلاً له، وفي الحالات كلها كان الخوفُ يسبقه إلينا، والرعبُ الذي يتناثر من عيون الصغار يجعله شهيقاً آخر يسابقُ الزفيرَ في أجسادنا ويحتسي الماءَ من جلودنا ومن كلّ مسامةٍ من مساماتنا. ليلة في تاريخ العمر لا تشبه ما فات ولن تشبه ما سيأتي، فقد ترنّح فيها الزمانُ وصار يشرب الخمرةَ كما البشر.

عفواً، إنه يتكرر، ذلك المشهدُ الذي راح فيه الزمانُ يترنّح من سكرةٍ ما جرى لنا.

مجمرةٌ كان رذاذُ الهواء، مجمرةٌ تَعْبر منها آلافُ الطبقات من البارودِ والرعبِ وشقائقِ النعمان. غريبٌ تاريخُكَ يا

عراق: زهورٌ ونارٌ في أحلك ساعات العمر. مجمرةٌ، واللهِ، كان الهواء في الطريق إلى بيوتنا وشوارعنا الخلفية. لن نبرح تلك الذاكرةَ حتى آخر ساعة في العمر. قلتُ له: «لا تبكِ يا صغيري، أنت اليوم بحاجةٍ إلى ذاكرة. هذا الذي يجري أمام عينَيْك مجزرةٌ رسموها منذ وقتٍ بعيد، والدنيا لا تدري بما جرى، والدموعُ لن تنفع أوردةَ القلب. وإذا ما مررتَ في المستقبل على بلدٍ من بلدانهم، أَخْبِرْهُم عن أيام المجزرة، فسوف يصغي إليك أحفادُهم، وقد ترى بقايا ضميرٍ هنا، أو بقايا إحساسٍ هناك... قلْ لهم حقيقةَ ما جرى يا بنيّ»!

حراشف الحكاية هذه أطول من غضاريف الأمس. سيأتي، مِنْ خلف السحب العامرة بالمحبة، النبيُّ الذي ننتظر، ونحكي له ما فعل الصهاينةُ بمقدَّساتنا وأرضنا؛ فهو يدري أنّ الليل مهما طال لا بد أن ينجلي عن صباحٍ بهيٍّ عامرٍ بالضوء. الأنبياء علّمونا أنّ الوقت يمرّ دائماً هكذا: بين عسرٍ ويسر. هل ثمة من نبيٍّ قادم؟ وماذا سيفعل أمام هذا السواد الذي يغطّي الضمائر وينام في بؤبؤ العيون؟

فارغٌ نبضُ المدينة، شريانُ أزقتها، ذاك الوريدُ الذي يمتدّ من سموّ «الكاظمية» إلى حضرة «عبد القادر الكيلاني». لا شيء في القلب، ولا في سماء الروح، سوى الخوفِ على بغداد. تاريخ الجسد العراقي الرابض في عرين البصر.. هو الذي يرى الجرح، يعطي من دمه ساقيةً لحياةٍ أبعد وأحلى. مهما كبر الثمنُ، سيبقى غصنُ الزيتون ودبسُ النخيل. سبحان بغداد على صبرها: لا نخيلُها أحنى الجذوعَ، ولا تأوّهَ فيها الشيوخُ. جسدٌ من الحكمة والكبرياء والأسف، لا خلايا جلدِها بكتْ ولا بساتينُ ماضيها نشفتْ. ترابُها من ذهب العيون، وأمطارُها من دمعة الكرامة والعشق والرحمة. هي أرضٌ من عطرِ النبوّات، وترابٌ من لحم الشهداء، شجرٌ من آهات العذارى، وبرتقالٌ من جرح الأمطار.

استيقظْ من نومك ـ الآن ـ وتعالَ اكتبْ، ربما قصتُّكَ الأخيرة أو صراخَكَ الأخيرَ. استيقظْ قبل فوات الأوان. اجلسْ هنا في مكانك هذا، واكتبْ (لكنْ كيف أفسِّر ما أريد؟ فما جرى أبعدُ من برق الخيال وفوقه، بل أبعد بكثير من نيازك المستحيل).

سأربط حزامَ القصة القصيرة إلى نهايته، وأعترفُ بأنني فشلتُ. ولكنْ هل نجح سواي في الكتابة عمّا جرى؟ إذ كيف يمكن أن تَرْسم فوق الماء شوارعَ تحترق وعماراتٍ تجلس القرفصاء؟ كيف يمكنك ـ عن طريق القصة القصيرة ـ أن تكتب عن طفلٍ تلاشى على جسر «الناصرية» ولم يعثروا على قطرة دم أو على جزءٍ من أصابعه أو ثيابه أو أثرٍ ـ أيّما أثر ـ يشير إلى حياةٍ كانت؟

نظرتُ إلى طبقاتٍ من نار، تأتي لا أدري من أين، أسمعُ هذا الشيءَ الذي لا اسم له. أجمعُ شملَ هواجسي، تنفرط مساماتي عني، أُمسكُ هذا الشيءَ المرعوبَ الذي يلتصق بي، فإذا به «ياسر» الصغير، ابني، يسأل عن مطرٍ من ومضٍ خاطف: «هل سيأتي علينا يا بابا»؟ وأتذكر طفلَ الناصرية الذي تلاشى (هل سيأتي علينا هذا الساقط من نهايات السماء؟)

يمسكني من لحمي، يمزِّقه ذعراً، وأقول بيني وبين رعبي: «ليس من أحدٍ رأى ما رأينا». مثلُثٌ من القنابل، كنّا في نقطةٍ منه، لا أحد يدري في تلك الساعة كيف يفكرون وماذا سيفعلون ومَنْ نحن بالنسبة إليهم؟ الكلام الذي يقال، الآن، سيبدو تماماً دون معنى: فقط سقط الكونُ كله، والبراكينُ كلها، والزلازلُ لم تترك شبراً من الأرض إلاّ وَحَفَرَتْه من الجذور. ماذا حلّ بنا؟ شبحٌ أسود، بل شبحٌ أبيض بملابس من تراب، وبكاءٌ يصعد فوق الدنيا ويحرق ما يشاء أو ينقذ مَنْ يشاء. ولا شيء سوى الرعب، يمشي بين النفوس، يمرح ويسرح في فضاءٍ بلا حدود، لا أحد يمنعه وليس من رادعٍ يَكْسر هذا الطوقَ المخبول. مَن الذي مات الآن؟ وكيف نصدّق أنّ ثمةَ مَنْ سيبقى؟

أرجوك أن تصحو من نومك العميق هذا، لترى ما حلّ بالمدينة والشوارع والجسور. مِنْ أين جاء هذا المسعورُ ينهش الحدائقَ والنساءَ والأزقّة والذكريات؟ حرامٌ، واللهِ، أن نترك هذا «النهّاش» يمرح في القلب كما يشاء.. لكنْ، في وجهِ مَنْ سنصرخ ونحكي القصةَ كما نعرفها؟ لا هذا الليلُ يَفْهم الحقيقةَ كما «فعلوها»، وليس النهارُ بكاشفٍ للقناع الذي لبسوه. ذلك أنّ اللعبة كانت أكبر آلافَ المرات مِنْ كلِّ ما فعلوه. فقد انطمرتْ في الذاكرة حضارةٌ عمرُها ستة آلاف سنة، لم نعد نتذكر منها غيرَ الهجرةِ والجوع والإفلاس والتشردِ والأمراض. لماذا أيها العصرُ المعصور، لماذا ندفع الثمنَ مرتين؟ لماذا أيها الزمن المزمنُ بالهلع واللاجدوى، لماذا تَفْرض على قلوبنا أن نكون الضحيةَ؟ من أجلِ مَنْ يسقط هذا العقلُ العربيُّ الجبّار، ولماذا تنهشه فئرانُ الموائد ونملُ الجحور؟

ليلةٌ واحدة من هذا الزمن المخبول يُمكنها أن تصبح الجنونَ كله. مَنْ رأى طبقاتٍ من القنابلَ تسقط ـ كما الأوراق ـ فوق النهريْن؟ ذاك هو عرسُ السماسرة، شهرُ العسل الذي يسبق ماء الصديد. استيقظْ يا سيدي من نومك وتعال اكتبْ، ربما قصتك الأخيرةَ أو صراخَك الأخير. أرجوك أن تستيقظ قبل فوات الساعة. وما نفعُ الكتابة يا سيدي أمام سيلٍ جارفٍ من الحقد؟ لا هذا القلب كان يصدِّق المستحيلَ، ولا المستحيلُ كان يَعْلم بجبال السمّ التي تشظّتْ على العصافيرِ والقلوبِ والنساءِ والحليب والأحلام. هل تبتعد؟ إلى أين؟ هذه بغداد، بغدادُك أيها العذبُ المعذّب. هذه بغداد، البحرُ الذي أعطاك أمواجَهُ واسمَهُ، شجرُ الحنين والمحبة والسجون. إلى أين؟ قلتُ إنّها بغداد، ثمرُ الضياء والحضارة والعشق الأبديّ، فلفلُ الطعام ودمعةُ المهاجر، حيث لا جوازَ سفرٍ ولا دعاءَ ولا رجاءَ: فقد انقلب المعنى فوق المعاني، وصار عليك أن تكتب القصةَ ثانيةً حتى تصدِّق ما ترى.. وهل تُراك رأيتَ؟!

عيني عليكِ يا بغداد، كلُّ طواويس الدنيا تركع تحت شسع نعليك، إذا رفعتِ

خنصرَكِ. طاف الأخضرُ فوق الكرة الأرضية، بأمركِ، إذا رفعتِ سبّابَتَكِ ستصلّي ملائكةُ السماء على خدَّيْكِ ﴿وهو الذي أنزَلَ من السماء ماءً، فأخْرَجْنا به نباتَ كلِّ شيءٍ، فأخْرَجْنا منه خَضِراً نُخرج منه حَبّاً مُتَراكِباً، ومن النَخْلِ، مِنْ طَلْعِها، قِنْوانٌ دانيةٌ وجناتٍ مِنْ أعنابٍ، والزيتونَ والرمّانَ مشتبهاً وغيرَ مُتَشابِهٍ، انظروا إلى ثَمَرِهِ إذَا أثمر...﴾. وبغداد أثمرتْ على مرّ العصور، عبر التواريخ وتحت سقفِ السماء، أثمرت المعنى والصبرَ والنخيلَ والضميرَ و... الانتقامَ.

وَيْلي على طفولتي، قتلوها فوق جسر الجمهورية. وَيْلي على جسر الجمهورية، ذبحوه قرب طفولتي وأمام عينيّ. كنتُ أسمّيه «ذاكرةَ الطفولة» أو «رائحةَ الشتاء» أو «طعمَ الصبا».. ألفَ اسمٍ سمَّيْتُهُ، ولَمّا يزلْ ينتظر المزيدَ. علّمونا أن نعطيك عنواناً ـ في دائرة البريد ـ لكلّ بيتٍ من بيوتنا، لكل نبضٍ في قلوبنا. العنوان: عبد الستار ناصر، قرب جسر الجمهورية، بغداد؛ وهناك: الشاعر كَزار حنتوش خلف جسر الجمهورية، عند النفق الثاني، بغداد. صرتَ عنوانَ الصعاليكِ والمبدعين والشعراءِ والشحّاذين والفقراءِ المنسيين. وَيْلي عليكَ وأنت مذبوحُ اليديْن والساقيْن. كنتَ عنوانَ كلِّ مسامةٍ وكلِّ وريدٍ يمرّ عليك. أيها الشجرُ الشامخُ الذي تمتدّ أغصانُه من الرصافة حتى الكرخ، ويطول مهرجانُهُ اليوميُّ من الكرخ إلى روح الرصافة بلا تعب، بلا وجع، وأنت تَحْمل على ظهرك الملايينَ من عشّاقٍ وباعةٍ وموظّفين، تَعْبر معهم من الهموم إلى السعادة، ومن الصمت إلى التأمل. عيني عليكَ يا جسرَ شبابي، كم حلوةً عبرتْ معي عليكَ وأخبرتني أنها «تحبكَ» أنت ولم أغضبْ منكَ ولا عاندتُ نفسي في المجيء إليك؟ أتذكر قول الشاعر الذي عافك مذبوحاً وبكى مرتيْن:

في ذمة اللّهِ ما القى وما اجدُ
أهذهِ صخرةٌ أم هذهِ كبدُ؟

بكى مرتين: واحدةً عليك، وثانيةً عليك أيضاً. فلماذا قتلوك أيها «الباشا» وأنت الذي لا يموت؟ لماذا ذبحوكَ أيها الشهيد وأنت الذي، من دمي ولحمي، ستعود؟ لماذا، أيها المجروحُ، يتكرر السيفُ عليك، والجيوشُ والغزاةُ تأتي إليك؟ ماذا ينفعهم مجردُ جسرٍ مكسور الرقبة؟ أهذه حربٌ أم أحقادُ سنينٍ لا ندري كيف جمعوها في قبضةٍ واحدةٍ، صارت من نصيبك يا جسر الجمهورية أن تأتي على طولك الجميل وعلى شموخك البهيّ الطالع نحو السماء؟

قبل ثلاثين سنة، عندما كنتُ أكبرَ مما أنا فيه اليوم، كنتُ أمشي على جسر الجمهورية، أحمل تحت إبطي حفنةً من طفولتي وطموحاتي المضحكة، أشتري بدرهمٍ واحدٍ نصفَ مطاعم الأمس، وأغنّي بصوتٍ ليس ثمة ما هو أجمل من نباحه وغرابته. وكان «الجمهورية» يأخذني بسرعة إلى الصوب الثاني لئلاّ يصغي إلى ضجة حنجرتي.. كان يغازلني وفي الوقت نفسه يُبْعدني لئلا أموت عند ذراعه الأولى. هل تدري الجسورُ أو تعلم بموعد قتلها؟ إذا لم تكن كذلك، فكيف حدث أن أحداً لم يمرّ عليه قبل قصفه بساعةٍ واحدة، ولا سمح لمخلوقٍ أن يطأ إسمنتَهُ وحديدَهُ المسلّح؟ ذبحوه منفرداً، ثم قطّعوه إلى نصفين بعد يومٍ واحد على موته!

لكنه عادَ كما العنقاء، وَعُدْنا جميعنا إليه في مهرجانٍ يمتد من زوارق الكرخ إلى طفولة الرصافة. عدنا. لكننا بين لحظة وأخرى، نمضي لرؤية الجراح العميقة التي ما زالت مرسومةً على جبينه وذراعيه. ويْلي عليك، كم عانيتَ أيها السيد الجسر!

قبل الحصار، أم بعد الحصار، كان قد جرى كلُّ ما جرى؟ ليس هذا هو المهم، الساعة هي الساعة ذاتها منذ العهد التركيّ. العدلُ أساس الملك، كذبٌ، كذبٌ: فالملكُ أساسُ العدل. إنْ تملكْ سكيناً، تملكْ حقَّكَ في قتلي (رحم اللّه الشاعر بلند الحيدري على قولٍ كهذا).

«الجوع»، كلمةٌ اندثرتْ منذ زمان بعيد في القاموس العراقيّ. النخيل البصراويّ وحده يكفي لإشباع أهل الأرض جميعاً، فكيف يموت العراقيُّ من الجوع، وهو الحارسُ الأبديُّ على تلك الثروةِ الكنزِ التي كرّمها الربُّ والأنبياءُ؟ لكنّ النخيلَ، عبر حربٍ دامت ثمانية أعوام ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨، كانَتْ حالُهُ تشبه حالَ أهله: فقد حارب كما حاربوا، ومات من النخيل مَنْ مات، واحترق مَنِ احترق، وكان من نصيب المئات أن انخرط في طابور الشهداء، وصار التمرُ العراقيُّ بعد حينٍ من الدهر يفتّش عن التمر في نخيل العالم حوله!

كنتُ أرجو أن أكتب أكثرَ، عن المرضى وهم يموتون من أجل حبّةٍ أو إبرةٍ أو قطرةٍ من دواء لم يتوفر.

كنتُ أرجو أن أكتب أكثر، عمّا فعله الحصارُ بالأطفال وهم يغادرون المدرسة صوب الشوارع للتسول وبيع الصحف ومسح زجاج السيارات ومسح أحذية القصّابين واللصوص.

كنتُ أرجو أن أكتب أكثر، عن المسرح الذي انقلب على خشبته المقدّسة وصار محضَ رقصٍ وشتائم وهزّ بطونٍ وكلامٍ فارغ.

كنتُ أرجو أن أكتب أكثر، عن الموتى وعن حَسَدِ الأحياء لهم (لأنهم تخلّصوا من حياةٍ لا تستحق البقاء).. تلك كانت المرة الأولى في الكون ترى فيها الحَسَدَ يمشي في جنازةِ ميتٍ مضى وهو أكثر ما يكون فرحاً بنهايته!

كنتُ أرجو أن أكتب أكثر: عن الأدباء الذين باعوا «ثرثانتس» و«سارتر» و«نجيب محفوظ» و«ماركيز» و«تشيخوف» و«كونديرا» و«لينين» و«إدريس» من أجل طفلٍ يقول: «بابا، أنا جائع» في أول الليل.

كنتُ أرجو أن أكتب أكثر. لكنّ صافرة الإنذار رنّ رنينُها، وينبغي إطفاءُ الشمعة الوحيدة، لئلا يسمعوا ما أكتب. أعترف، لا حول لي أمام صاروخٍ أتلاشى بعدَه محضَ حروفٍ كانت هيَ اسمي ذاتَ يوم.

أسمعُ الآن موتاً يجيء.. فمعذرةً! □